الفصل العاشر

التوبة

توبة العبد إلى ربه هي وظيفة عمره، وعنوان فلاحه، وسبيل صلاحه، وسبب سعادته في دنياه وأخراه، وهي بداية العبد ونهايته، حاجته إليها دائمة في كل لحظة من حياته، إنها رجوع من التيه إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور، ومن التشتت والتمزق والضياع إلى الطمأنينة والسكينة والأمان، إنها موافقة الفطرة والعودة لطريق السلامة والنجاة وهجر لسبيل العصاة الهالكين، وطريق الغافلين الجاهلين، وأسعد يوم في حياة الإنسان يوم يتوب الله عليه فيه كما قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لكعب بن مالك: «**أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك**»[(١)]، إنها ميلاد جديد، وإفاقة كريمة، ووثبة إيمانية، وسعادة حقيقية يستشعر التائب لذتها ومتعتها ولكنها ليست لحظة عابرة أو كلمة تردد في وقت من الأوقات فحسب بل إنها لا تفارق العبد ما دامت فيه حياة يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: منزلة التوبة أول المنازل وأوسطها وآخرها، فلا يفارقه العبد السالك ولا يزال فيه إلى الممات وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به واستصحبه معه[(٢)].

حقيقتها وحكمها

التوبة واجبة من كل ذنب وتأخير التوبة ذنب يحتاج إلى توبة والواجب على العاقل أن يسارع إليها وأن يحققها بشروطها فرارًا إلى الله عَزَّوَجَلَّ قبل أن يحال بينه وبينها قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ١٧٩]، وتلمح في هذه الآية الكريمة أن الخطاب لأهل الإيمان فلم يقل ربنا يا أيها الذين أذنبوا أو عصوا وإنما قال ﴿ءَامَنُواْ﴾.

---

(١) رواه البخاري برقم [٤٤١٨]، ومسلم برقم [٢٧٦٩]

(٢) انظر منزلة التوبة في «المدارج».

والتوبة لغة تدل على الرجوع يقال تاب من ذنبه أي: رجع عنه والتوبة اصطلاحًا: هي الإقلاع عن الذنب والندم على فعله والعزم على عدم العودة إليه فرارًا من الله إليه، قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة في الشرع ترك الذنب لقبحه والندم على ما فرط منه والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة، وقال الجرجاني: التوبة هي الرجوع إلى الله بحل عقدة الإصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب[1].

التوبة لماذا؟

أيها الأحبة، من أقبل إلى ربه أقبل ربه إليه، ومن تاب إلى الله تاب الله عليه، ومن فرَّ إلى الله آواه وهداه، وعصمه ونجاه، وللتوبة فضائل عظيمة، ومناقب كريمة، تحث من عرفها على المسارعة إليها، والحرص عليها، فلماذا نتوب؟ وما هي ثمرة تلك التوبة؟

أولًا - نتوبُ طاعةً لله ورسوله:

في التوبة إلى الله استجابة لأمره تعالى وأمر رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي تلك الاستجابة حياة القلب بالإيمان وسعادة النفس بالقرب من الرحمن جَلَّ جَلَالُهُ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أمر عباده بالتوبة وأوجبها عليهم والخطاب لك أنت فهل تستجيب وتتوب أم تغفل وتسهو وكأن الخطاب أريد به سواك؟! كلا إن الخطاب موجه لي ولك أن نتخلص من ذنوبنا وأن نقلع عنها توبة إلى الله جَلَّ جَلَالُهُ، قال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وقال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم: ٨]، وفي صحيح مسلم عن الأغر بن يسار المزني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة**»[2]، قلت: سبحان الله! إذا كان هذا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الأولين والآخرين والذي

(١) «المفردات» ص [٧٦]، و«التعريفات» للجرجاني [٧٤].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٧٠٢].

غفر الله له من ذنبه ما تقدم وما تأخر يتوب في اليوم الواحد مائة مرة فكم نحتاج نحن أن نتوب؟! اللهم تب علينا توبة نصوحًا ترضيك عنا وتقبل توبتنا منا.

ولقد أمر الله تعالى بالتوبة اليهود والنصارى الذين افتروا ما افتروا واقترفوا ما اقترفوا من كفر وتكذيب وعناد قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤]، وأمر الله المسرفين على أنفسهم بالمعاصي أن يتوبوا إليه وألا يقنطوا من رحمته فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]، وهذه هي أرجى آية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ في قول بعض أهل العلم كما تقدم أن منهم من قال بأن أرجى آية في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ هي قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ [البروج: ١٠]. فهؤلاء كفروا بالله وقتلوا أولياء الله وعذبوهم ثم الله عَزَّوَجَلَّ يقول ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ ﴾ فدل على أنهم لو تابوا بعد ذلك لقبل الله منهم التوبة فسبحانه ما أرحمه وما أحلمه!! وما أكرمه وما أرأفه!!

ثانيًا- في التوبة فرار من الظلم:

إن الظلم كل الظلم في انصراف العبد عن التوبة وبعده عن طاعة الله وإصراره واستمراره على المعاصي والسيئات وكل معصية فهي ظلم من العبد لنفسه حيث استجلب لها عذاب الله، واستجلب لها غضب الله، لقد ظلم نفسه حين تسبب بهذه المعصية في دخولها النار عياذًا بالله ولهذا لما أكل آدم من الشجرة ومعه حواء عليهما السلام قالا في توبتها إلى ربهما جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣]، ولما ذهب يونس بن متى صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مغاضبًا وظن ألا يقدر ربه عليه أي ألا يضيق الله عليه بحبس ونحوه والتقمه الحوت وصار في الظلمات في بطن الحوت نادى يونس عَلَيْهِٱلسَّلَامُ ربه تائبًا إليه كما قال ربنا تعالى: ﴿ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ

أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، ومما يظهر لك كذلك أن المعاصي ظلم للنفس قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠]، لهذا فاعلم أن المصر على المعصية ظالم لنفسه بترك التوبة وتعريضها لعذاب الله ومقته وإن لم تتب فأنت ظالم بقدر معصيتك لله عَزَّوَجَلَّ قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الحجرات: ١١].

ثالثًا- في التوبة فرار من الجهل:

المقيم على معاصي الله جاهل بعظمة ربه، جاهل بخطر العصيان، وكل عاصٍ جاهل، وما وقعت معصية قط إلا لجهل صاحبها بقدرة الله وعظمته ومراقبته لعباده قال الله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النحل: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال الله تعالى عن يوسف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]، قال بعض السلف: ما عصى الله أحدٌ حتى يغيب عقله، يقول ابن القيم: وهذا ظاهر فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو في قبضة الرب تعالى أو تحت قهره، وهو مطلع عليه، وفي داره على بساطه، وملائكته شهود عليه، ناظرون إليه، وواعظ القرآن ينهاه، وواعظ الإيمان ينهاه، وواعظ الموت ينهاه، وواعظ النار ينهاه والذي يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم[1]؟!

قال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: من آثر المعصية على الطاعة فإنما حمله على ذلك جهله وظنه أنها تنفعه عاجلًا باستعجال لذتها، وإن كان عنده إيمان فهو يرجو التخلص من

---

(١) «الداء والدواء» ص [٩١].

سوء عاقبتها بالتوبة في آخر عمره وهذا جهل محض فإنه يتعجل الإثم والخزي ويفوته عز التقوى وثوابها ولذة الطاعة(١).

رابعًا- في التوبة تخلص من عقوبات المعاصي:

من ظن أنه يذنب ويعصي ولا يعاقب فهذا إما مجنون وإما جاهل، فإن لكل ذنب عقوبة عاجلة أو آجلة ما لم يسارع العبد بالتوبة منه قال الله تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ولقد سطر ابن القيم في ذلك صفحات طويلة في كتابه الماتع النافع «الداء والدواء» فارجع إليه فإنه يكفيك في هذا الباب، فإذا تاب العبد إلى ربه تخلص من تلك العقوبات وحصلت له لذة الظفر على نفسه وهواه وشيطانه الذي لا يريد إلا هلاكه وتدميره فاستعن بالله وتب إليه، وفر منه إليه وأدم التوبة والاستغفار والتضرع بالأسحار واثبت على طاعة ربك حتى تلقاه فتقر عينك بلقياه.

خامسًا- نتوب طلبًا للفلاح والسعادة:

السعادة كل السعادة في التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ والفرار إليه والشقاء والضنك والضيق في الإعراض عن طاعته وذكره سبحانه قال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٤]، وقد علق الله عَزَّوَجَلَّ الفلاح على حصول التوبة ووجودها وتحقيقها فقال تعالى: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وإذا نظرت إلى أحوال العصاة وجدت في

(١) «لطائف المعارف» ص [٤٩٣]، ط. دار ابن رجب

قلوبهم حسرات وفي نفوسهم آلام، وفي وجوههم ظلمة وكدر وغم وأسى وإن تظاهروا بالضحك وأوهموا الناس بأنهم في سعادة لقد قال أحد من تاب من الممثلين: والله لقد كنا نكذب على الناس نظهر أمامهم كأننا في سعادة وبيوتنا مليئة بالشقاء والنكد.

وقال بعض التائبين: لقد كنت ميتًا فأحياني الله.

وقالت تائبة: كنت أبكي ندمًا على ما فاتني من حب الله ورسوله وعلى تلك الأيام التي قضيتها بعيدة عن الله.

وقالت فتاة أخرى: كما أتوجه إلى كل أخت غافلة عن ذكر الله، منغمسة في ملذات الدنيا وشهواتها أن عودي إلى الله -أُخَيَّه- فوالله إن السعادة كل السعادة في طاعة الله.

وتقول ثالثة: وختامًا أقول لكل فتاة متبرجة: أنسيت أم جهلت أن الله مطلع عليك؟! أنسيت أم جهلت أم تجاهلت أن جمال المرأة الحقيقي في حجابها وحيائها وسترها[1] التوبة خلاص من رق المعصية، ونجاة من سجن الذنوب المهلكة واستشعار للقرب من الله وانشراح الصدر بطاعته وسرور النفس بالقرب من الله.

سادسًا- بالتوبة يحصل العبد حب الله له:

من تاب إلى ربه أحبه، وسدده ووفقه، وفرح بتوبته إليه فرحًا عظيمًا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، الله يحب من عبده أن يتوب إليه وأن يعود إليه، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٦-٢٧].

---

(١) انظر كتاب «كيف أتوب؟» للشيخ يعقوب ص [٢٠-٢١]، ط. سوق الآخرة.

وفي الصحيحين من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة»**.

وفي رواية لمسلم **«لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، وقد أيس من راحلته، فبينما هو كذلك، إذ هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»**[(١)].

ويقبل الله التوبة من كل مَن تاب إليه ويغفر الذنب لكل من استغفر وأناب فهو: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [غَافِر: ٣].

وإذا تاب الله على عبده فإن من كرمه وجوده وفضله سبحانه أن يكافئ العبد بصدقه في التوبة ويبدل سيئاته إلى حسنات كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلٗا صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفُرقَان: ٧٠]، الله يريد منك أن تتوب ويحب منك أن تتوب ويعرض عليك التوبة كل صباح ومساء، وكل لحظة، وكل آن قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إن الله عَزَّوَجَلَّ يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها»**[(٢)]، اللهم تب علينا وخذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا وقنا ربنا شر نفوسنا.

سابعًا- في التوبة نور القلب وخروجه من سجن العمى:

إذا تكاثرت الذنوب على القلوب أعمتها وأصمتها، وطبع على قلب صاحبها وكان من الغافلين وإذا تاب إلى ربه أبصر القلب بعد العمى، وأضاء فيه نور الحق بعد ظلمات الهوى والمعاصي قال بعض السلف في قول الله تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [المُطَفِّفِين: ١٤]، هو الذنب بعد الذنب وقال الحسن البصري: هو الذنب على الذنب حتى

(١) رواه البخاري برقم [٦٣٠٩]، ومسلم برقم [٢٧٤٧].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٧٥٩].

يعمى القلب، وقال غيره: لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم؛ يقول ابن القيم: وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير رانًا، ثم يغلب حتى يصير طبعًا وقفلًا وختمًا، فيصير القلب في غشاوة وغلاف فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله فحينئذٍ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد[١]، المعصية تورث القلب ظلمة والوجه سوادًا وفي التوبة نور للقلب وبياض للوجه وسعة للرزق كما قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إن للحسنة ضياء في الوجه ونورًا في القلب، وسعة في الرزق، وقوة في البدن ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سوادًا في الوجه وظلمة في القلب ووهنًا في البدن، ونقصًا في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق[٢].

التوبة تحدث في القلب نورًا وانشراحًا وطمأنينة عجيبة يحسها التائب تملأ فؤاده وتعمر قلبه، روى الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **«إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران الذي ذكر الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]»**[٣].

قال المباركفوري: «تُصقل قلبه» وفي رواية أحمد «صقل» بالصاد والمعنى نظف وصفى مرآة قلبه لأن التوبة بمنزلة المصقلة تمحو وسخ القلب وسواده[٤].

---

(١) «الداء والدواء» [٩١-٩٢].

(٢) المصدر السابق [٨٥].

(٣) رواه الترمذي برقم [٣٣٣٤]، وابن ماجه برقم [٤٢٤٤]، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» برقم [٢٦٥٤].

(٤) «تحفة الأحوذي» (٨/ ٣٤٥)، ط. التوفيقية.

ثامنًا- تحصيل الخيرية ودعاء الملائكة:

الإنسان خطاء بطبعه مذنب لضعفه، وليس ثمة أحد من الناس إلا وقد وقع في الذنوب والمعاصي عدا الأنبياء والرسل قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون**»(١)، قال المباركفوري: «**كل بني آدم خطاء**» كثير الخطأ وأما الأنبياء فإما مخصوصون عن ذلك وإما أنهم أصحاب صغائر والأول أولى فإن ما صدر منهم من باب ترك الأولى أو يقال الزلات المنقولة عن بعضهم محمولة على الخطأ والنسيان من غير أن يكون لهم قصد إلى العصيان قاله القاري «**وخير الخطائين التوابون**» أي الرجَّاعون إلى الله بالتوبة من المعصية إلى الطاعة(٢).

والتائب إلى ربه عَزَّوَجَلَّ ينال دعاء الملائكة له واستغفارهم له قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾.

[غَافِر: ٧-٩]

تاسعًا- في التوبة والاستغفار نجاة في الدنيا والآخرة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

---

(١) رواه الترمذي برقم [٢٤٩٩]، وابن ماجه [٤٢٥١]، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٤٥١٥].

(٢) «تحفة الأحوذي» (٦/ ٤١٩).

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [التحريم: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦]، فتب إلى ربك تنج من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وأكثر من الاستغفار ترحم وتكن في أمان من نزول العذاب بك اللهم اغفر لنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

عاشرًا- الاقتداء بالرسل والأنبياء أكمل الخلق وأزكى البشر:

أعلى الخلق مكانة ومنزلة عند الله وأقرب خلق الله إلى الله وأزكى الناس نفوسًا وأذكاهم عقولًا هم أنبياء الله ورسله ومع سمو أقدارهم ورفعة مراتبهم وعصمتهم من المعاصي كانوا يستغفرون ربهم ويتوبون إليه ليرسموا لنا بذلك منهاجًا خالدًا في حقيقة العبودية والتذلل لله جَلَّجَلَالُهُ وديمومة التوبة إليه.

فهذا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وحواء قال عَزَّوَجَلَّ عنهما بعد أن أكلا من الشجرة: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وقال تعالى عن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ حين سأل ربه تعالى عن ابنه فنهاه ربه عن ذلك لأن ابنه كان كافرًا فاستغفر نوح من ذلك؛ قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]، ومن دعاء إبراهيم

الخليل عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن موسى الكليم: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [القصص: ١٦]، وقال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ [ص: ٢٤-٢٥]، وقال تعالى عن نبيه سليمان: ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥]، وقال تعالى مخاطبًا نبيه ورسوله محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ [غافر: ٥٥]، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه: «**اللهم اغفرلي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني اللهم اغفرلي جدي وهزلي وخطأي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفرلي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني أنت إلهي لا إله إلا أنت**»(١).

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»(٢).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله واستغفروه فإني أتوب في اليوم مائة مرة**»(٣)، فإذا كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو المعصوم والذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر يؤمر بالاستغفار ويكثر من التوبة فما الظن بغيره؟! فإن قيل: فماذا يغفر للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى يؤمر بالاستغفار ويكثر منه؟ قيل: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يرى

---

(١) رواه البخاري برقم [٦٣٩٨]، ومسلم برقم [٢٧١٩].

(٢) رواه البخاري برقم [٦٣٠٧].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٧٠٢].

قصور نفسه عن القيام بحق الله كاملًا فكان يستغفر من ذلك أي: من ظنه التقصير في حق الله فصلوات الله وسلامه عليه.

حادي عشر- التوبة سبيل حسن الخاتمة:

الخواتيم ميراث السوابق، والجزاء من جنس العمل فمن اتقى ربه وتاب إليه واستقام على طاعته ختم له بالحسنى ونال كرامة الله جَلَّجَلَالُهُ وثوابه، هذا شاب كان في المسجد يتلو القرآن ويرتله وينتظر إقامة صلاة الفجر فلما أقيمت الصلاة رد المصحف إلى مكانه ثم نهض ليقف في الصف فإذا به يقع على الأرض فجأة مغمى عليه حمله بعض المصلين إلى المستشفى يقول الطبيب الذي عاين حالته: أُتي إلينا بهذا الشاب محمولًا كالجنازة وإذا به مصاب بجلطة في القلب لو أصيب بها جمل لمات من فوره، يقول: نظرتُ إلى الشاب فإذا هو يصارع الموت فسارعنا إلى نجدته وتنشيط قلبه، أوقفت عنده طبيب الإسعاف يراقب حالته وذهبت لإحضار بعض الأجهزة لمعالجته، فلما أقبلت إليه مسرعًا فإذا الشاب متعلق بيد طبيب الإسعاف والطبيب قد ألصق أذنه بفم الشاب والشاب يهمس في أذنه بكلمات فوقفت أنظر إليهما، لحظات وفجأة أطلق الشاب يد الطبيب وحاول جاهدًا أن يلتفت إلى جانبه الأيمن ثم قال بلسان ثقيل: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله وأخذ يكررها ونبضه يتلاشى وضربات القلب تختفي ونحن نحاول إنقاذه ولكن نفذ قضاء الله ومات الشاب، عندها انفجر طبيب الإسعاف باكيًا حتى لم يستطع الوقوف على قدميه فعجبنا وقلنا له: يا فلان مالك تبكي؟ إن هذه ليست أول مرة ترى فيها ميتًا، ولكن الطبيب استمر في بكائه فلما خف عنه البكاء سألناه: ماذا كان من أمرك، وما الذي حدثك به هذا الشاب؟ فقال: لما رآك «يا دكتور» تذهب وتجيء وتأمر وتنهى علم أنك الطبيب المختص به قال لي: يا دكتور قل لصاحبك طبيب القلب لا يتعب نفسه أنا ميت لا محالة، والله إني أرى مقعدي من الجنة الآن.

أي أخي، العودة والتوبة إلى الله سبيل فلاحك وسعادتك في هذه الحياة ولا ملجأ لك من الله إلا إليه فعد إليه من قريب قبل أن تعظم بك الحسرات، هذا بعض السلف رأى في بعض السكك بابًا قد فتح وخرج منه صبيٌّ يستغيث ويبكي وأمه خلفه تطرده حتى خرج فأغلقت الباب في وجهه ودخلت فذهب الصبي غير بعيد ثم وقف مفكرًا فلم يجد له مأوى غير البيت الذي أخرج منه ولا من يؤويه غير والدته فرجع مكسور القلب حزينًا فوجد الباب مرتجًا فتوسَّده ووضع خده على عتبة الباب ونام، فخرجت أمه فلما رأته على تلك الحال لم تملك أن رمت نفسها عليه والتزمته تقبله وتبكي وتقول: يا ولدي، أين تذهب عني؟ ومن يؤويك سواي؟ ألم أقل لك لا تخالفني ولا تحملني بمعصيتك؟ على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة بك والشفقة عليك وإرادتي الخير لك؟ ثم أخذته ودخلت[1]، وأين رحمة الوالدة من رحمة الله التي وسعت كل شيء؟!

هيا أخي، تب إلى ربك وأكثر من الاستغفار، أسفًا لك إذا دعيت اليوم إلى التوبة وما أجبت، أسفًا لك إذا أمر الله اليوم بالإنابة إليه وما أنبت! هيا تخلص من ذنوبك واستشعر لذة العافية ونقاء القلب وطهره من خبث السيئات، هيا طيِّب قلبك وحياتك بكثرة الاستغفار وصدق التوبة إلى الله جل جلاله.

التوبة النصوح

من أعمال القلوب العظيمة التي لابد منها لكل عبد منيب التوبة النصوح وهي تعني تنزيه القلب عن الذنوب وأن يكره العبد المعصية ويأنف من فعلها، وأن يظل العبد نادمًا على ما مضى من معاصيه مجمعًا عازمًا ألا يعود إليه يقول ابن القيم عليه رحمة الله: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول- تعميم جميع الذنوب واستغراقها بحيث لا تدع ذنبًا إلا تناولته.

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [١٣٦-١٣٧].

الثاني- إجماع العزم والصدق بكليته عليها بحيث لا يبقى عنده تردد ولا تلوم ولا انتظار بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث- تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته والرغبة فيما لديه والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله أو لحفظ قوته وماله أو استدعاء حمد الناس أو الهرب من ذمهم أولئلا يتسلط عليه السفهاء أو لقضاء نهمته من الدنيا أو لإفلاسه وعجزه ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله عَزَّوَجَلَّ فالأول يتعلق بما يتوب منه والثالث يتعلق بما يتوب إليه، والأوسط يتعلق بذات التائب نفسه فنصح التوبة الصدق فيها والإخلاص وتعميم الذنوب بها ولاريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه وتمحو جميع الذنوب وهي أكمل ما يكون من التوبة والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله[1].

رياض التائبين

هذه وقفات وعظات مع الدمعة الصادقة، والرقة البالغة، والانكسار والذل، والخشوع والخضوع، والأوبة والتوبة إلى الله جَلَّجَلَالُهُ، وقفات مع قوم تجرعوا مرارة الذنوب، وأمرضهم اتباع الهوى وآلمهم بعدهم عن ربهم فاشتد ندمهم، واستيقظت قلوبهم، واستفاقت نفوسهم فأقبلوا إلى ربهم تائبين نادمين، ضارعين داعين، مستغفرين آيبين، وفي الحديث عنهم دعوة للنفس المثقلة بالذنوب المثخنة بجراحات المعاصي أن تنهض من غفلتها، وأن تثوب إلى رشدها، وتعود إلى ربها، وتسلك طريق النجاة مجتنبة تلك الدروب المهلكة التي تغر وتغري بالسير فيها ولا يخفى عليكم أن قصص التائبين كثيرة طويلة يصعب حصرها لاسيما في هذا المقام ولذا فسوف أذكر منها شيئًا قليلًا ولعله يفي بالمقصود والله المستعان.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٠)، ط. دار الكتاب العربي.

١-من يحول بينك وبين التوبة؟

هذه قصة عجيبة لمن تدبرها وهي برغم شهرتها مؤثرة كلما قرأها المرء وتأمل فيها إنها نبأ عن رجل يرتكب أشنع وأفظع جريمة بعد الكفر بالله، وليس مرة واحدة بل تسعة وتسعين مرة والعجيب أنه يتكرر منه هذا القتل بهذه الصورة الكبيرة الضخمة دون نكير من أحد ولعل غلظته وقسوته وشدته أوقعت في نفوس الناس الحذر منه والخوف من الإنكار عليه وبرغم هذه القسوة الشديدة يبزغ نور الإيمان في قلبه ويريد بعد كل ذلك أن يتوب إلى ربه ولكنه دُلَّ على عابد لا يفقه من الدين إلا العبادة فلما سأله عن إمكانية التوبة قام ذلك العابد بسد باب التوبة وإغلاقه في وجهه وهنا تأتي خطورة اليأس فما دام الرجل لن يغفر له فليقتل ذلك العابد فكمل به مائة.

وأنا أريدك أن تتخيل صورة وهيئة هذا الرجل الذي قتل مائة نفس كيف تكون؟ ومع ذلك يتحرك الإيمان في قلبه مرة ثانية فيسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على عالم فأنقذه الله به وتاب الله عليه ودخل ذلكم القاتل جنة الله عَزَّوَجَلَّ فتعال نأخذ الحديث كما قصه وحكاه رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ، كما في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال: إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسًا يعبدون الله تعالى فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء، فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة: جاء مقبلًا بقلبه إلى الله تعالى، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل**

خيرًا قط فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم أي حكمًا فقال: قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»(١)، وفي هذا الحديث بيان لسعة رحمة الله، وقبوله التوبة من كل من تاب إليه وفيه خطورة الجهل والفتوى بغير علم، وانخداع الناس بالظواهر، وفضل العلم وبيان أن فيه النجاة، وعدم احتقار أحدٍ من الناس وعدم اليأس والقنوط وفيه أن المرء يتأثر بمن يعيش بينهم فإذا عاش بين الصالحين سرى صلاحهم إلى قلبه ومن عاش بين العصاة أصابه من لفح معاصيهم وتضرر بوجوده بينهم وفيه أن عمل القلب شرط في النجاة وليس مجرد التصديق فقط «**جاء تائبًا مقبلًا بقلبه**» وفيه أن للملائكة قدرة على التشكل بصورة الآدميين، وأن لكل منهم مهمة أوكلها الله به فهناك ملائكة للرحمة وملائكة للعذاب إلى غير لك من وظائفهم وأعمالهم، وفي الحديث أن من أراد الاستقامة على التوبة فليهجر أرض المعصية وأصدقاء السوء.

٢- بذل الروح طلبًا للمغفرة:

وهذا نبأ يملأ القلب بالدهشة والإكبار حينما يرى المرء حرصًا على التوبة وإصرارًا على المغفرة يصل إلى بذل الروح والنفس من أجل حصول مغفرة متيقنة لا شك فيها إنها امرأة سقطت في كبيرة الزنا في لحظة ضعف ثم استفاقت من ذنبها وعرفت خطورة ما اقترفت وشناعة ما ارتكبت وأكل الغم والندم فؤادها وجاءت طائعة مختارة تطلب أن يقام فيها حد الله لكي تطهر من ذنبها، ولأنها كانت متزوجة فإن حكم الله في المحصن الزاني أن يرجم بالحجارة حتى يموت، وفي الحديث ما يدل على أن المرأة كانت تعلم ذلك ولكنها اختارت عذاب الدنيا على عذاب الآخرة، وآثرت أن تلقى ربها طاهرة من أي ذنب وخطيئة وحينما يقام عليها حد الله يصلي عليها رسول الله ﷺ ثم يشهد لها بصدق توبتها ويثني عليها بذلك والحديث رواه مسلم عن عمران بن الحصين الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ وهي حبلى من الزنا فقالت: يا رسول الله أصبت

(١) رواه البخاري برقم [٣٤٧٠]، ومسلم برقم [٢٧٦٦].

حدًا فأقمه علي فدعا نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وليها وقال: «أحسن إليها فإذا وضعت فأتني» ففعل فأمر بها نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فشدت عليها ثيابها ثم أمر بها فرجمت ثم صلى عليها فقال له عمر: تصلي عليها يا رسول الله وقد زنت؟! قال: «لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لو سعتهم وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عَزَّوَجَلَّ»[(١)].

٣- كلمة تحدث توبة:

ذكر ابن قدامة في كتابه التوابين: أن عبد الله بن مسلمة القعنبي كان يشرب الخمر ويصحب أهل السوء فدعاهم يومًا وقد قعد على الباب ينتظرهم فمرَّ شعبة على حمار والناس خلفه يهرعون فقال: من هذا؟ قيل: شعبة قال: وإيش شعبة؟ قالوا: محدث فقام إليه وعليه إزار أحمر فقال له: حدثني، فقال: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك، فأشهر سكينه وقال: تحدثني أو أجرحك فقال له: حدثنا منصور عن ربعي عن أبي مسعود قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت» فرمى سكينه ورجع إلى منزله فقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فهراقه، وقال لأمه: الساعة أصحابي يجيئون فأدخليهم وقدمي إليهم الطعام فإذا أكلوا فأخبريهم بما صنعت بالشراب حتى ينصرفوا ومضى من وقته إلى المدينة، فلزم مالك بن أنس فأثر عنه ثم رجع إلى البصرة وقد مات شعبة فما سمع منه غير هذا الحديث[(٢)].

وحدثني أحد الإخوة قال: مر أحد الدعاة يومًا في بعض الطرقات فوجد مجموعة من الشباب قد اجتمعوا على غناء وفحش في الأقوال والأعمال وجعلوا يصفقون بأيديهم ويتمايلون طربًا وقام واحد منهم وسط الحلقة يتراقص ويغني قال: فاقترب الشيخ منهم وعمد إلى ذلك الراقص بينهم واقترب من أذنه وهمس بصوت هادئ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: ١٢٤]، وتركهم وانصرف ومرت السنون والأعوام

(١) رواه مسلم برقم [١٦٩٦].

(٢) كتاب «التوابين» ص [١٤٢-١٤٣] ن ط. دار المنار.

وبينما هذا الشيخ يخطب الجمعة وعاد منصرفًا إلى بيته سمع موعظة تلقى في مسجد بعد الجمعة فاقترب بسيارته فإذا الموعظة مؤثرة جدًا أسرع بالدخول إلى المسجد فإذا الناس يبكون من أثر الموعظة يقول: وتأثرت وبكيت فقلت: ما أبلغ هذا الداعية لعلي أتفق معه على إلقاء محاضرة أو خطبة في مسجدي قال: وذهبت إليه بعد انتهاء موعظته فلما رآني ابتسم وتهلل في وجهي وقام إليَّ يصافحني فتعجبت وقلت: هل تعرفني؟ قال: نعم جيدًا قلت: عذرًا ولكني ما رأيتك في حياتي إلا الآن قال: بلى قد رأيتني قلت: أين ومتى؟ فقال: ألا تذكر يومًا مررت فيه ببعض الشباب وهم يغنون ويرقصون فاقتربت من ذلك الواقف بينهم ووعظته بآية من كتاب الله قال: نعم أذكر ذلك فقال: أنا ذلك الشاب الذي وعظته وقد هداني الله بكلماتك هذه فجزاك الله عني خيرًا.

ويقول أحد الإخوة: مررت ببعض الطرقات فرأيت على جانبه رجلًا يحدث حركات غريبة وعجيبة فنظرت فإذا به يمسك بسكين ويريد قتل نفسه أسرعت إليه وحاولت منعه بالقوة وأذكر له آيات وأحاديث ترهب من الانتحار وقتل النفس فنظر إليَّ وقال صارخًا: ما جاء بك؟ دعني أذهب واتركني، ولكني شجعت نفسي لإنقاذ هذا الإنسان وكررت عليه كلام الله وكلام رسوله ثم انقضضت عليه سريعًا وصرخت فيه قائلًا: لقد جربت المعاصي والسيئات فكانت هذه هي الثمرة هلا جربت طريق الطاعة والقرب من الله، هلا جربت أن تتوب فسوف تسعد والله وسوف تنسى همومك وغمومك فهدأ ثم قال: لنجرب معكم. ثم تاب إلى الله عَزَّوَجَلَّ ورجع إليه وهو الآن من خيرة التائبين بل إنه بعد شهر واحد من توبته اهتدى على يديه بفضل الله قرابة ثلاثين شابًا كلهم هداهم الله على يديه فسبحان من أحيا نفسًا لتحيا به نفوس!

٤- توبة في مجلس علم:

روى ابن أبي الدنيا بإسنادٍ له أن صالحًا المري رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يومًا في مجلسه يقص على الناس فقرأ عنده قارئ: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْآزِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ

حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر: ١٨]، فذكر صالح النار وحال العصاة فيها وصفة سياقهم إليها، وبالغ في ذلك وبكى الناس فقام فتى كان حاضرًا في مجلسه، وكان مسرفًا على نفسه فقال: أكل هذا في يوم القيامة؟ قال صالح: نعم وما هو أكثر منه لقد بلغني أنهم يصرخون في النار حتى تنقطع أصواتهم فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنين من المريض المدنف فصاح الفتى: أيا الله! واغفلتاه عن نفسي أيام الحياة واأسفاه على تفريطي في طاعتك يا سيداه! واأسفاه على تضييع عمري في دار الدنيا! ثم استقبل القبلة وعاهد الله على توبة نصوح ودعا الله أن يتقبل منه وبكى حتى غشي عليه فحمل من المجلس صريعًا فمكث صالح وأصحابه يعودونه أيامًا ثم مات، فحضره خلق كثير فكان صالح يذكره في مجلسه كثيرًا ويقول: بأبي قتيل القرآن! وبأبي قتيل المواعظ والأحزان فرآه رجل في منامه فقال: ما صنعت؟ قال: عمتني بركة مجلس صالح فدخلت في سعة رحمة الله التي وسعت كل شيء[1].

٥- توبة عاص:

يقول صاحب القصة: كنت في سيارتي متجهًا إلى القاهرة وعند أحد الجسور الموصلة إلى إحدى القرى فوجئت ببقرة تجري ويجري وراءها صبي صغير... وارتبكت، فاختلت عجلة القيادة في يدي ولم أشعر إلا وأنا في أعماق الماء (ماء ترعة الإبراهيمية) ورفعت رأسي إلى أعلى لعلِّي أجد متنفسًا ولكن الماء كان يغمر السيارة جميعها ... مددت يدي لأفتح الباب فلم يفتح هنا تأكدت أني هالك لا محالة، وفي لحظات لعلها ثوان، مرت أمام ذهني صور سريعة متلاحقة، وهي صورة حياتي الحافلة بكل أنواع العبث والمجون، وتَمثل لي الماضي شبحًا مخيفًا وأحاطت بي الظلمات كثيفة، وأحسست أني أهوي إلى أغوار سحيقة مظلمة فانتابني فزع شديد فصرخت في صوت مكتوم.. يارب، ودرت حول نفسي مادًا ذراعي أطلب النجاة لا من الموت الذي أصبح محققًا، بل من خطاياي التي

(١) «لطائف المعارف» ص [٥٠٢-٥٠٣]، ط. دار ابن رجب.

حاصرتني وضيقت عليَّ الخناق، أحسست بقلبي يخفق بشدة فانتفضت وبدأت أزيح من حولي تلك الأشباح المخيفة وأستغفر ربي قبل أن ألقاه وأحسست كأن ما حولي يضغط عليَّ كأنما استحالت المياه إلى جدران من الحديد فقلت: إنها النهاية لا محالة فنطقت بالشهادتين وبدأت أستعد للموت. وحركت يدي فإذا بها تنفذ في فراغ... فراغ يمتد إلى خارج السيارة، وفي الحال تذكرت أن زجاج السيارة الأمامي مكسور... شاء الله أن يتكسر في حادث منذ أيام ثلاثة... وقفزت دون تفكير ودفعت بنفسي من خلال هذا الفراغ... فإذا الأضواء تغمرني وإذا بي خارج السيارة... ونظرت فإذا جموع من الناس يقفون على الشاطئ كانوا يتصايحون بأصوات لم أتبينها... ولما رأوني خارج السيارة نزل اثنان منهم وصعدا بي إلى الشاطئ.

وقفت على الشاطئ ذاهلًا عما حولي غير مصدق أني نجوت من الموت وأني الآن بين الأحياء كنت أنظر إلى السيارة وهي غارقة في الماء فأتخيل حياتي الماضية سجينة هذه السيارة الغارقة أتخيلها تختنق وتموت وقد ماتت فعلًا وهي الآن راقدة في نعشها أمامي لقد تخلصت منها وخرجت... خرجت مولودًا جديدًا لا يمت إلى الماضي بسبب من الأسباب، وأحسست برغبة شديدة في الجري بعيدًا عن هذا المكان الذي دفنت فيه ماضيَّ الدنس ومضيت... مضيت إلى البيت إنسانًا آخر غير الذي خرج قبل ساعات.

دخلت البيت وكان أول ما وقع عليه بصري صور معلقة على الحائط لبعض الممثلات والراقصات وصور لنساء عاريات.. واندفعت إلى الصور أمزقها ثم ارتميت على سريري أبكي ولأول مرة أحس بالندم على ما فرطت في جنب الله.. أخذت الدموع تنساب في غزارة من عيني.. وأخذ جسمي يهتز.. وفيما أنا كذلك إذ بصوت المؤذن يجلجل في الفضاء وكأنني أسمعه لأول مرة .. فانتفضت واقفًا وتوضأت.. وفي المسجد وبعد أن أديت الصلاة أعلنت توبتي ودعوت الله أن يغفرلي[1].

(١) «العائدون إلى الله» (١/ ٦١-٦٤)، توزيع مؤسسة الجريسي بالرياض.

٦- نصيحة على الهواء:

يقول صاحب القصة: أنا شاب عشت حياة مترفة مع أبي في أحد الأحياء الراقية بالقاهرة وكانت الخمر تقدم على المائدة بصورة طبيعية.. وكنت أعرف تمامًا أن دخل والدي كله من الحرام وخاصة الربا وكان بجوار بيتنا مسجد كبير فيه شيخ يسمى إبراهيم وفي يوم من الأيام كنت جالسًا في شرفة المنزل والشيخ يتحدث، فأعجبني كلامه فنزلت من الشرفة وذهبت إلى المسجد لأجد نفسي كأني قد انسلخت من كل شيء وأصبحت شيئًا آخر كان الشيخ يتحدث عن قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**أيما جسد نبت من حرام فالنار أولى به**» فوجدتُ نفسي لا أريد أن أدخل البيت ولا أن آكل منه شيئًا، صرت أدخل وأخرج وأتعمد ألا آكل شيئًا وأجلس بعيدًا عن أسرتي وأضع أمامي قطعة من الجبن وبعض (الفلافل)، وأسرتي أمامها كل ما تشتهيه النفس من الطعام، كادت أمي تموت همًا من أجلي، تريدني أن آكل معهم ولكني رفضتُ وأفهمتها أن مال أبي حرام، وأنهم يأكلون حرامًا ويشربون حرامًا، فانضمت أمي إليَّ، والتزمت بالصلاة، وبعدها انضمت إلينا أختي أما أبي فقد أصر على فعله عنادًا واستكبارًا، كنت أتعامل مع أبي بأدب واحترام وقمت أنا وأمي وأختي كل منا يجتهد في الدعاء لأبي كنت أقوم الليل فأسمع نحيب أمي وأختي وتضرعها إلى الله أن يهدي والدي.

وفي صباح يوم من الأيام استيقظت لأجد أبي قد تخلص من كل الخمور التي في البيت ثم أخذ يبكي بكاء شديدًا ويضمني إلى صدره ويقول: سوف أتخلص من كل شيءٍ يغضب الله، ولما حان وقت الصلاة أخذت والدي وذهبنا إلى المسجد وصار يسمع خطب الشيخ والحمد لله تخلص من الربا ومن الخمور[1].

---

(١) «العائدون إلى الله» (٣/ ٦٩-٧٠).

٧- كفى بالموت واعظًا:

يقول صاحب القصة: وفي ليلة حمراء اجتمعت أنا وصديقي في أحد أماكن الفجور وفقدنا في تلك الليلة عقولنا حتى خرجنا ونحن نترنح، وفي طريقنا إلى الفندق الذي نسكن فيه أصيب صديقي بحالة إعياء شديدة ولم أكن في حالة عقلية تسمح لي بمساعدته لكني كنت أغالب نفسي فأوقفت سيارة أجرة حملتنا إلى الفندق، وفي الفندق استدعى الطبيب على عجل وأثناءها كان صديقي يتقيأ دمًا فأفقت من حالتي الرثة، وجاء الطبيب ونقل صديقي إلى المستشفى وبعد ثلاثة أيام من العلاج المركز عدنا إلى أهلينا وحالة صديقي الصحية تزداد سوءًا وبعد يوم من وصولنا نقل إلى المستشفى ولم يبق على دخول رمضان غير أربعة أيام، وفي ذات مساء ذهبت لزيارة صديقي في المستشفى وقبل أن أصل إلى غرفته لاحظت حركة غريبة، والقسم الذي يوجد فيه صديقي «مقلوب» على رأسه وقفت على الباب فإذا بصراخ وعويل، لقد مات صاحبي لتوِّه بعد نزيف داخلي عنيف فبكيت وخرجت من المستشفى وأنا أتخيل أنني ذلك الإنسان الذي ضاعت حياته وانتهت في غمضة عين شهقت بالبكاء وأنا أتوب إلى الله وأنا أستقبل رمضان بالعبادة والاعتكاف والقيام وقراءة القرآن وقد خرجت من حياة الفسق والمجون إلى حياة شعرت فيها بالأمن والأمان والاطمئنان والاستقرار وقد كنت بعيدًا عن ذلك أستمرئ المجون والفجور حتى قضى صاحبي نحبه أمامي أسأل الله أن يتوب عليَّ[1].

هذه لمحات من حياة قوم أشرقت في قلوبهم أنوار الإيمان وعرفوا النور بعد طول التخبط في الظلمات، فهيا بادر وسارع إلى ربك أيقظ قلبك، وأزعج فؤادك، ونبِّه نفسك واستحضر وقوفك بين يدي الله وتب من قريب قبل أن يحال بينك وبين التوبة.

تفكر في مشيبك والمآب ... ودفنك بعد عزك في التراب

إذا وافيت قبرًا أنت فيه ... تقيم به إلى يوم الحساب

---

(١) السابق (٣/ ٧٢-٧٣).

وفي أوصال جسمك حين تبقى ... مقطعة ممزقة الإهاب
فلولا القبر صار عليك سترًا ... لأنتنت الأباطح والروابي
خلقنا للممات ولو تركنا ... لضاق بنا الفسيح من الرحاب
ينادي في صبيحة كل يوم ... لدوا للموت وابنوا للخراب

أيا عبد الله، كم في كتابك من خطأ وزلل، وكم في عملك من سهو وخلل، فهيا أقبل بالتوبة قبل حلول الأجل، فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل، هيا اعترف بالذنب لربك وأقر، وتب إليه واستغفر، وأقلع عن الذنوب ولا تصر، فإن جزاء الذنوب مُر، وفي فعلها كل ما يغم ويضر، وقل: يارب

أيا ملك الملوك أقل عثاري ... فإني عنك أنأتني الذنوب
وأمرضني الهوى لهوان نفسي ... ولكن ليس غيرك لي طبيب
أياديان يوم الدين فرج ... همومًا في الفؤاد لها لهيب

قل: يارب أذنبت فاغفرلي، أسأت فاعف عني، أخطأت فتجاوز عني، فليس لي رب سواك ولا إله لي غيرك.

كل الذنوب فإن الله يغفرها ... إن شيع المرء إخلاص وإيمان
وكل كسر فإن الله يجبره ... وما لكسر قناة الدين جبران
يا عامرًا لخراب الدار مجتهدًا ... بالله هل لخراب العمر عمران
ويا حريصًا على الأموال يجمعها ... أقصر فإن سرور المال أحزان
دع الفؤاد عن الدنيا وزخرفها ... فصفوها كدر والوصل هجران

أيها التائب!

فتش في توبتك هل هي صحيحة أم فاسدة؟ هل هي مقبولة أم مردودة مرفوضة؟ إن التوبة ليست كلامًا فحسب وإنما التوبة تعني توجه القلب والجوارح كلها بالطاعة لله عَزَّوَجَلَّ، إنها الفرار من الله إليه، والتائب منكسر القلب خاشع الطرف، غزير الدمع، في وجهه أسى، في وجدانه لوعة، صادق في عبارته، خاشع في عبادته، له في كل واقعة عبرة، إنه كمن نجا من الغرق، وكمن أطلق من سجن وكمن فك من قيد، إنه كالأم رد إليها ولدها بعد أن سلب منها زمانًا، وكالعقيم الذي طال عقمه ثم بشر بولد، وللتوبة المقبولة علامات تعرف بها وفي ذلك يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: التوبة المقبولة الصحيحة لها علامات منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

ومنها: أنه لايزال الخوف مصاحبًا له، لا يأمن مكر الله طرفة عين، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل عند قبض روحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَتْ: ٣٠]، فهناك يزول الخوف.

ومنها: انخلاع قلبه وتقطعه ندمًا وخوفًا وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التَّوْبَة: ١١٠]، قال: تقطعها بالتوبة ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه وهذا هو تقطعه، وهذا هو،حقيقة التوبة لأنه يتقطع قلبه حسرة على ما فرط منه وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطع قلبه في الدنيا على فرط حسرة وخوفًا تقطع في الآخرة إذا حقت الحقائق وعاين ثواب المطيعين وعقاب العاصين، فلابد من تقطع القلب إما في الدنيا وإما في الآخرة.

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضًا كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد وإنما هي أمرٌ وارد،

ذلك كله تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة قد أحاطت به من جميع جهاته وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده فأخذ فأحضر بين يديه ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًا، ولا عنه غناء، ولا منه مهربًا، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيده وشدة حاجته إليه وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده، وذله وعز سيده فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه وما أعظم جبره بها وما أقربه بها من سيده فليس شيء أحب إلى سيده من هذه الكسرة والخضوع والتذلل والإخبات والانطراح بين يديه والاستسلام له[1].

عوائق في طريق التوبة

كثير من الناس يتمنى أن يتوب ويشتهي أن يحيا حياة نظيفة طاهرة لكن هناك معوقات تعوقه، وعقبات تمنعه من ذلك وهذه بعضها مع كيفية الخلاص منها وبيان السبل الممكنة لتجاوزها والموفق من وفقه الله.

العائق الأول- تعلق القلب بالذنب[2]:

قد يعجز العبد عن التوبة؛ لأن القلب قد أشرب حب المعصية وتعمقت جذورها في نفسه كما قال الله تعالى عن بني اسرائيل: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البقرة: ٩٣]، تجد من الناس من تعلق قلبه بامرأة لا يستطيع أن ينساها، أو بمال محرم كان يأتيه، أو بشراب محرم أو شهوات ألفتها نفسه واعتادتها فهو يستصعب الإقلاع عنها.

وهذه العقبة تعالج بأمور منها نسيان الذنب ومدافعته عن الخاطر، واستشعار خطر العقوبة عليه، واستبشاع العودة إليه، ومنها هجر أماكن المعصية وأهلها واستبدال

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٥٩-١٦٠)، ط. دار المنار.

(٢) هذه العقبات استخلصتها من كتاب «كيف أتوب؟» للشيخ القدوة محمد حسين يعقوب حفظه الله وسدده ورفع درجته وكم له عليَّ من فضل فجزاه الله خيرًا.

ذلك بأماكن الطاعات وأصحاب صالحين يذكرونه بالله ومنها شغل النفس دائمًا وعدم ترك فرصة للفراغ فإن الفراغ مفسد مهلك وفي شغل النفس بالحق صرف لها عن الباطل قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل، وقد قيل:

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

ومنها قصر الأمل، ودوام ذكر الموت، واستحضار الوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، ومنها تعويد النفس على فعل الطاعة والإكثار منها.

العائق الثاني- استثقال التوبة:

وسبب ذلك تسويل الشيطان ووسوسته وحرصه الشديد على إضلال العبد وتخذيله عن الطاعة بكل سبيل وينضاف إلى ذلك ميل النفس الأمارة بالسوء إلى الشهوات وإلف المعاصي، فتجده لا يتخيل أن يمر عليه يوم بغير المعصية التي اعتاد عليها كشرب خمر أو لقاء امرأة في الحرام أو حصول مال من ربا ورشوة أو استماع إلى غناء وموسيقى أو تدخين سيجارة، لا يتخيل أن يترك المعصية إنه يتصور أنه لو تاب لصار كل شيء محرمًا وهذا سوء فهم وخداع، ولو استشعر لذة الطاعة لأنف من المعصية واستنكف منها، نقول له أقبل ولا تخف، تعال وبادر وأبشر بكل مايسرك؛ فإن في الطاعة راحة قلبك وسعادة نفسك وسعادة حياتك واحذر من التسويف فإن ذلك من جند إبليس، واستحضر أن الموت قد يأتي بغتة وأن تموت فجأة فتندم في وقت لا ينفع فيه ندم، واصدق مع الله واعلم أن من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤]، لا تخشى من فوات رزق فربك يقول: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ۝٢٢ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن

دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هُود:٦]، وإذا أقبلت إلى طاعة الله كنت في حفظه ورعايته وحمايته قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك**»[١]، كن لله كما يريد يكن لك مثل ما تريد وفوق ما تريد، وتوكل على الله يكفك، واستعن به يعنك.

العائق الثالث- الاعتذار والتعلل والبحث عن المبررات:

لن يعدم العاصي مبررًا يذكره كلما عرضت عليه التوبة؛ لأن الشيطان قد زيَّن له ما هو فيه، ونفسه ألفت الباطل وتكره الانتقال منه، فنجد المبررات والاعتذارات كثيرة فالبنت تتبرج تقليدًا لزميلاتها وبحثًا عن ابن الحلال، وكل البنات يصنعن ذلك أو زوجها يرضى بذلك، لماذا تستمع الغناء والموسيقى؟ يأتيك الجواب: كل الشباب يصنع ذلك، لماذا تسرق وتغش؟ أنت تعرف حالة الفقر التي أنا فيها، ومطالب البيت كثيرة ولو لم أغش فلن أربح شيئًا، وكل هذا من تلبيس إبليس وتزيين الشيطان قال الله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ﴾ [فَاطِر:٨]، وعلاج ذلك طلب العلم وحضور مجالسه، واتهام النفس ودوام التضرع والدعاء، ومعرفة خطر الغفلة واتباع الهوى وأن ذلك لن يشفع له عند الله يوم القيامة.

العائق الرابع- الاغترار بستر الله وتوالي نعمه:

بعض الناس غره ستر الله عليه، وبقاء حاله على ما هو عليه فهو يذنب ويذنب ولم يرَ عقوبة على ذنبه والخطر أن هذا قد يكون استدراجًا من الله عَزَّوَجَلَّ وصاحبه لا يشعر روى الإمام أحمد بسند حسن عن عقبة بن عامر أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إذا رأيت الله عَزَّوَجَلَّ يعطي العبد من الدنيا على معاصيه؛ فإنما هو استدراج**»[٢]، ثم تلا قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم

---

(١) رواه الترمذي [٢٥١٦]، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم [٧٩٥٧].

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، وصححه الألباني.

مُّبْلِسُونَ ﴾ [الأنعام: ٤٤]، قال بعض السلف: إذا رأيت الله عَزَّوَجَلَّ يتابع عليك نعمه وأنت مقيم على معاصيه فاحذره، فإنما هو استدراج منه يستدرجك وقد قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣-٣٥]. وقد رد الله سبحانه على من يظن هذا الظن بقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ﴾ [الفجر: ١٥-١٧]. أي: ليس كل من نعمته ووسعت عليه رزقه أكون قد أكرمته وليس كل من ابتليته وضيقت عليه رزقه أكون قد أهنته، بل أبتلي هذا بالنعم وأكرم هذا بالبلاء.

وقال بعض السلف: رب مستدرج بنعم الله عليه، وهو لا يعلم ورب مغرور بستر الله عليه وهو لا يعلم، ورب مفتون بثناء الناس عليه وهو لا يعلم[1].

العائق الخامس- الابتلاءات التي تقع على التائب:

يقول الله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، عندما يتوب الإنسان تعتريه الابتلاءات والاختبارات؛ ليتبين صدقه من كذبه، قد يضيق عليه في عمله وقد يتنكر له بعض الناس وقد يرى استنكارًا واستهجانًا من المحيطين به، بل قد يجد السخرية والاستهزاء وعلاج ذلك بأن يعلم أن البلاء سنة كونية ثابتة لتمحيص الصف وتطهيره من الأدعياء والكذبة ولقد أخبر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ اللحظة الأولى التي نزل عليه الوحي فيها أن هذا الطريق طريق الابتلاء، وأن من ابتغى الاستقامة ودعا إليها سوف يجد من أهل العوج كثرة كاثرة تعاديه وتمكر به وتؤذيه وتحاول صده بكل سبيل

(١) «الداء والدواء» ص [٥٢].

عن ذلك السبيل قال ورقة بن نوفل للنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حينما أخبره بخبر الوحي ونزل جبريل عليه في حراء قال: يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك فقال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «أو مخرجيَّ هم؟» قال: نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به إلا عودي[١]، فإذا فقه المرء طبيعة الطريق، وعلم ما سوف يلقاه فيها سهل عليه سلوك السبيل والاستمرار على طاعة الله جل وعلا قال عبد الملك بن إسحاق: ما من الناس إلا مبتلى بعافية لينظر كيف شكره أو ببلية لينظر كيف صبره[٢] ألا فليعلم السائر إلى ربه أنه بصبر قليل وثبات قليل سوف يزول عنه كل ذلك وسوف يفرج الله عنه وسوف تنقلب العداوات إلى صداقات حميمة إذا صدق مع الله أو على الأقل سوف تخف حدة العداوات بإذن الله، والله المستعان.

العائق السادس- العصرة التي تصيب قلب التائب:

هذه مسألة دقيقة ذكرها ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ فقال: هاهنا دقيقة قلَّ من يفطن لها إلا فقيه في هذا الشأن وهي أن كل تائب لابد له في أول توبته من عصرة وضغطة في قلبه من همٍّ أو غم من ضيق أو حزن، يأتي الشيطان إلى امرأة قد انتقبت فيقول: لقد استعجلت لماذا لم تنتظري حتى تتزوجي، يأتي إلى من هجر أصدقاء السوء ومواطن الخنا فيقول ألم تكن تأنس وتضحك مع هؤلاء الذين يحبونك وتحبهم وما الضرر في التدخين؟! وما المشكلة في مخالطة النساء ومحادثتهن؟! لقد ضيقت على نفسك أمرًا كان واسعًا وعلاج هذه العصرة أنه لابد من الصبر والإكثار من الطاعة وسقي القلب بماء الإخلاص وتغذيته بأدوية الذكر والتلاوة والدعاء، فإن من وراء ذلك متعة إيمانية ولذة روحية كما يقول ابن القيم: ولكن إذا صبر على هذه العصرة قليلًا أفضت به إلى رياض الأنس وجنات الانشراح لذلك أقول [الشيخ يعقوب]: فليطمئن التائب وليعلم أن هذه العصرة لن

---

(١) رواه البخاري برقم [٣].

(٢) «عدة الصابرين» ص [١٧٢]، ط. دار الريان.

تـدوم وأن مـن ورائها لذة وقرة عين حينما يستشـعر قرب الله عَزَّوَجَلَّ وحينما يشـعر بمعنى الانتصار والتوفيق والسداد.

شروط التوبة الستة

للتوبـة المقبولـة شروط لابـد مـن تحقيقهـا حتـى تكـون التوبـة صحيحـة مقبولة عند الله تعالى وقد ذكرت في العنوان أنها ستة لأن المشهور عند الناس كونها ثلاثة، ولكن الصحيـح مـا ذكر وقبل سردها بدليلها أذكر كلام الإمـام المبارك يحيى بن شرف النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابـه المبـارك الذي كتب له القبـول في الأرض: رياض الصالحين يقول: قال العلـماء: التوبة واجبـة من كل ذنب، فإن كانت المعصية بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثة شروط: أحدها- أن يقلع عن المعصية، والثاني- أن يندم على فعلها، والثالث: أن يعزم ألا يعود إليها أبدًا، فإن فقد أحد هذه الثلاثة لم تصح توبته، وإن كانت المعصيـة تتعلـق بآدميٍّ فشروطها أربعة هذه الثلاثة وأن يـبرأ من صاحبها فإن كانت مالًا أو نحـوه رده إليـه، وإن كانت حد قذف ونحوه مكنه منه أو طلب عفوه، وإن كانت غيبة اسـتحلها منه، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب فإن تاب من بعضها صحت توبته عند أهل الحق من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي[(١)]، وإليك بيان هذه الشروط بدليلها:

الشرط الأول- الإخلاص:

لكـي تكـون التوبـة مقبولـة فلابـد أن تكـون خالصـة لوجـه الله تعـالى وقـد قال رسـول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إنما الأعمـال بالنيـات**»[(٢)]، والتوبة الخالصة هـي التي ينوي بها النجـاة مـن عذاب الله والفوز بجنته وبلوغ رضوانه؛ لأن التوبة قد تكون معلولة فاسـدة كمـن يتـوب لأنه عجز عن فعل الذنب ولو قدر لفعل وكمـن يتوب خوفًا من الفضيحة

(١) «رياض الصالحين» ص [١٦]، ط. مكتبة العلم..

(٢) رواه البخاري برقم [١]، ورواه مسلم برقم [١٩٠٧].

فقط أو خوفًا من متابعة الشرطة له أو لكي يحافظ على مكانته الاجتماعية بين الناس أو طلبًا لمدح الناس وهروبًا من ذمهم، فهذه توبة معلولة فاسدة.

الشرط الثاني- الإقلاع عن الذنب:

لا تتصور التوبة مع الاستمرار على فعل الذنب واقتراف السيئات، كما يقول ابن القيم: وأما الإقلاع فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب[١]، فلا بد من ترك المعصية وهجرها والإقلاع عنها حتى تصح التوبة وتتم، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وأما الاعتذار فإنه من تمام التوبة أيضًا ولا نقصد به الاعتذار الذي هو محاجة عن الجناية بل أن يقول في قلبه ولسانه: اللهم لا براءة لي من ذنب فأعتذر؛ ولا قوة لي فأنتصر، ولكني مذنب مستغفر، اللهم لا عذر لي وإنما هو محض حقك ومحض جنايتي فإن عفوت وإلا فالحق لك، فهو اعتذار بإظهار الضعف والمسكنة، وأنه ضحية غلبة الشيطان العدو وقوة سلطان النفس الأمارة بالسوء والقول بلسانه: يارب لم يكن مني ما كان عن استهانة بحقك ولا جهلًا به، ولا إنكارًا لاطلاعك ولا استهانة بوعيدك؛ وإنما كان من غلبة الهوى وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك واتكالًا على عفوك وحسن ظنٍّ بك، ورجاء لكرمك وطمعًا في سعة حلمك ورحمتك، وغرني بك الغرور والنفس الأمارة بالسوء، وسترك المرخيُّ عليَّ وأعانني جهلي ولا سبيل إلى الاعتصام إلا بك ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك[٢].

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [١٢٣].

(٢) المصدر السابق [١٢٤].

الشرط الثالث- الندم:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الندم توبة**»(١)، والندم هو ركن التوبة الأعظم ولا تتحقق التوبة إلا به إذ إن من لم يندم على فعل القبيح فذلك دليل على رضاه به وإصراره عليه والذنب إما أن يحرق بنار الندم في الدنيا أو يحرق بنار جهنم في الآخرة.

الشرط الرابع- العزم على عدم العودة:

وذلك أن يعزم التائب بقلبه ألا يعود إلى الذنب في المستقبل مرة ثانية وهذا العزم هو صدق الاستقامة على الطاعة، وإنما يستعين على ذلك بمعرفة خطر الذنب، وأليم عاقبته ومرارة ثمرته، وقبح مواقعته ومعرفة ما في الطاعة من الخير والنفع والسكينة والاطمئنان، فإذا تبت فاستقم على التوبة واستمسك بعمل الصالحات، واستعن بالله يعنك.

الشرط الخامس- رد المظالم:

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض فليتحلله اليوم من قبل ألا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه**»(٢)، وفي صحيح مسلم أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**أتدرون من المفلس؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: «**إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار**»(٣).

---

(١) رواه ابن ماجه برقم [٤٢٥٢]، وأحمد (١/ ٣٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» [٦٨٠٢].

(٢) رواه البخاري برقم [٢٤٤٩].

(٣) رواه مسلم برقم [٢٥٨١].

الشرط السادس- وقوع التوبة في زمن الإمكان:

التوبة مقبولة في أي وقت وفي أي زمان مادامت في المرء حياة ولا يغلق باب التوبة أبدًا إلا في حالتين الأولى- أن تبلغ الروح الحلقوم وتصل إلى الغرغرة؛ والثانية- أن تطلع الشمس من مغربها؛ روى الترمذي بسند حسن عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**إن الله عَزَّوَجَلَّ يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»(١)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه**»(٢).

دعوة إلى التوبة

قال الله جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٨].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

---

(١) رواه الترمذي برقم [٣٥٣٧]، وابن ماجه برقم [٤٢٥٣]، وحسنه الألباني في «صحيح ابن ماجه» برقم [٣٤٣٠].

(٢) رواه مسلم برقم [٢٧٠٣].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيئ النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيئ الليل حتى تطلع الشمس من مغربها**»(١).

قال لقمان لابنه: يا بني، لا تؤخر التوبة؛ فإن الموت يأتي بغتة، وقال بعض الحكماء: لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل.

وقال بعض السلف: أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين، يشير إلى أن المؤمن لا ينبغي أن يصبح ويمسي إلا على توبة فإنه لا يدري متى يفجأه الموت صباحًا أو مساء، فمن أصبح أو أمسى على غير توبة فهو على خطر؛ لأنه يخشى أن يلقى الله غير تائب فيحشر في زمرة الظالمين قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

تب من خطاياك وابك خشية ... ما أثبت منها عليك في الكتب

أية حالة تكون حال فتى ... صار إلى ربه ولم يتب

تأخير التوبة في حال الشباب قبيح، ففي حال المشيب أقبح وأقبح.

لما احتضر العلاء بن زياد بكى فقيل له: ما يبكيك؟ قال: كنت والله أحب أن أستقبل الموت بتوبة، قالوا: فافعل رحمك الله فدعا بطهور فتطهر ثم دعا بثوب له جديد فلبسه، ثم استقبل القبلة فأومأ برأسه مرتين أو نحو ذلك ثم اضطجع ومات.

ولما احتضر عامر بن عبد الله بكى وقال: لمثل هذا المصرع فليعمل العاملون، اللهم إني أستغفرك من تقصيري وتفريطي، وأتوب إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا الله ثم لم يزل يرددها حتى مات رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقال عمرو بن العاص رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند موته: اللهم أمرتنا فعصينا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعنا إلا عفوك، لا إله إلا الله ثم رددها حتى مات.

---

(١) رواه مسلم برقم [٢٧٥٩].

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند موته: أجلسوني، فأجلسوه فقال: أنا الذي أمرتني فقصرتُ، ونهيتني فعصيت ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر فقالوا له: إنك تنظر نظرًا شديدًا يا أمير المؤمنين قال: إني أرى حضرة ما هم بإنس ولا جن ثم قبض رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

يا غافل القلب عن ذكر المنيات ... عما قليل ستثوي بين أموات
فاذكر محلك من قبل الحلول به ... وتب إلى الله من لهوٍ ولذات
إن الحمام له وقت إلى أجل ... فاذكر مصائب أيام وساعات
لا تطمئن إلى الدنيا وزينتها ... قد حان للموت ياذا اللب أن ياتي

التوبة التوبة قبل أن يصل إليكم من الموت النوبة، فيحصل المفرط على الندم والخيبة، الإنابة الإنابة قبل غلق باب الإجابة، الإفاقة الإفاقة فقد قرب وقت الفاقة، ما أحسن قلق التواب! ما أحلى قدوم الغياب! ما أجمل وقوفهم بالباب.

أيها العاصي، ما يقطع من صلاحك الطمع، ما نصبنا اليوم شرك المواعظ إلا لتقع إذا خرجت من المجلس وأنت عازم على التوبة قالت لك ملائكة الرحمة: مرحبًا وأهلًا، فإن قال لك رفقاؤك في المعصية هلم إلينا فقل لهم: كلا ذاك خمر الهوى الذي عهدتموه قد استحال خلًّا، يا من سود كتابه بالسيئات، قد آن لك بالتوبة أن تمحو، يا سكران القلب بالشهوات أما آن لفؤادك أن يصحو[1].

عن طلق بن حبيب قال: إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها العباد، وإن نعم الله أكثر من أن تحصى، ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين.

وعن الحسن قال: ابن آدم، ترك الخطيئة أهون عليك من معالجة التوبة، يؤمنك أن تكون أصبت كبيرة أغلق دونها باب التوبة فأنت في معمل.

---

(١) باختصار وانتقاء من «لطائف المعارف» ص [٥٠٥-٥٠٩].

قال شقيق البلخي: علامة التوبة البكاء على ما سلف، والخوف من الوقوع في الذنب، وهجران إخوان السوء، وملازمة الأخيار[1].

يا صاحب الخطايا أين الدموع الجارية، يا أسير المعاصي ابك على الذنوب الماضية، يا مبارزًا بالقبائح أتصبر على الهاوية؟! يا ناسيًا ذنوبه والصحف للمنْسى حاوية، أسفًا لك إذا جاءك الموت وما أنبت، واحسرة لك إذا دعيت إلى التوبة فما أجبت، كيف تصنع إذا نودي بالرحيل وما تأهبت، ألست الذي بارزت بالذنوب وما راقبت؟!

أيا كثير الشقاق، يا قليل الوفاق، يا مرير المذاق، يا قبيح الأخلاق، يا عظيم التوانى قد سار الرفاق، يا شديد التمادي قد صعب اللحاق، إخلاصك مُعْدَم وما للنفاق نفاق، معاصيك في إدراك والعمر في إمحاق، وساعي الأجل مُجِدٌّ كأنه في سباق، لا الواعظ يزجرك ولا الموت ينذرك وما تطاق.

سبحان من وفق للتوبة أقوامًا،وثبت لهم على الصراط أقدامًا، كفوا الأكف عن المحارم احترامًا، وأتعبوا في استدراك الفارط عظامًا، فكفر عنهم ذنوبًا وآثامًا، ونشر لهم بالثناء على ما عملوا أعلامًا، فهم في رياض المدائح وبترك القبائح يتطلبون (التائبون العابدون).

كشف لهم سجف الدنيا فرأوا عيوبها،وألاح لهم الأخرى فتلمحوا غيوبها، وبادروا شمس الحياة يخافون غيوبها، وأسبلوا من دموع الأجفان على تلك الأشجان غروبها، واشتغلوا بالطاعات فحصلوا مرغوبها، وحثهم الإيمان على الخوف فما يأمنون (التائبون العابدون).

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٦٢٢-٥٧٨)، (٩/ ٣١٥).

نظروا إلى الدنيا بعين الاعتبار، فعلموا أنها لا تصلح للقرار، وتأملوا أساسها فإذا هو على شفا جرف هار، فنغصوا بالصيام لذة الهوى بالنهار، وبالاستغفار يستغفرون (التائبون العابدون).

هجروا المنازل الأنيقة، وفصموا عرى الهوى الوثيقة، وباعوا الفاني بالباقي وكتبوا وثيقة، وحمَّلوا نجائب الصبر فوق ما هي له مطيقة، وطلبوا الآخرة والله على الحقيقة، وهكذا يكون (التائبون العابدون).

أبدانهم قلقة من الجوع والضرر، وأجفانهم قد حالفت على الليل السهر، ودموعهم تجري كما يجري دائمة المطر، والقوم قد تأهبوا فهم على أقدام السفر، عبروا عليكم ومروا لديكم وما عندكم خبر، وترنمت حداتهم لو أنكم تسمعون (التائبون العابدون).

يارب سر بنا في سرب النجابة، ووفقنا للتوبة والإنابة، وافتح لأدعيتنا أبواب الإجابة، يا من إذا سأله المضطر أجابه، يامن يقول للشيء كن فيكون (التائبون العابدون)[1].

أي أخي متى سوف تتوب؟! متى سوف تقلع عن المعاصي التي تملأ حياتك بالغموم والكدر، وهي في الآخرة أعظم خطرًا وأشد ضررًا، هيا سارع إلى ربك فإنه تواب، وتضرع إليه فإنه إذا دعي أجاب، واصدق في التوبة يقبل منك ربك المتاب، وتنجو من عذابه في يوم الحساب، وليكن لسان حالك ومقالك ذلكم الدعاء الذى ذكره ابن القيم حيث يقول: فلله ما أحلى قوله في هذه الحال: أسألك بعزك وذلي إلا رحمتنى، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيد سواك، لاملجأ ولا منجا منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من

(١) «التبصرة» لابن الجوزي [٣٠-٣٢]، ط. دار الحديث.

خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه[1]، اللهم تب علينا واغفرلنا وارحمنا وخذ بنواصينا إلى ما يرضيك عنا.

ففروا إلى الله

أإلى أخي، تذكر قبل أن تعصي ربك أن الله يراك وأنه مطلع عليك ولا يخفى عليه شيء من أمرك.

تذكر أن الله لو شاء لخسف بك الأرض وأنت تعصيه.

تذكر أن الله لو شاء لجمد الدماء في عروقك.

تذكر أن الله قادر على أن يجعل لك العقوبة فتذهلك عما تريد.

تذكر أن الله شديد العقاب سريع الحساب: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ۝٥١ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٢]، فعجِّل الأوبة وبادر بالتوبة وسارع في غسل الحوبة، وفر إلى ربك وتب إليه من ذنبك.

إلى الله يامن أهلكته الذنوب وعرقلته الخطايا!

إلى الله يامن أعماه الهوى وغره الغَرور!

إلى الله يا من تخبثت نفسه بالمعاصي وتكدرت بالسيئات!

إلى الله يا من قسا قلبه واسود فؤاده!

إلى الله يا من أسرته الشهوات!

إلى الله يا غافلًا عن يوم القيامة وما فيه، والموت ودواهيه!

إلى الله يا من يشكو الكدر والغم والضيق والألم!

---

(١) «تهذيب المدارج» ص [١٢٥].

إلى الله يا من تريد السعادة والسكينة والراحة والطمأنينة!

إلى الله يا من تريد الجنة وما فيها من نعيم مقيم!

إلى الله يا من تحب الله، وتطلب رضاه وتشتاق إلى رؤية وجهه الكريم في جنات النعيم!

إلى الله فالله يدعوك، الله يناديك، الله يحب منك أن تتوب، ويريد منك أن تعود إليه.

إلى الله لا إلى غيره تجد الأمن والأمان، تجد كل ما تقر به عينك وتسعد به، إلى الله فالله يريد منك أن تكون عبدًا له وحده كي يثيبك الجنة ويرضى عنك.

وأخيرًا فهذا هتاف تائب وانكسار مذنب منيب لربه يقول:

أنا العبد الذى كسب الذنوب ... وصدته الأماني أن يتوبا
أنا العبد الذي أضحى حزينًا ... على زلاته قلقًا كئيبًا
أنا العبد الذي سطرت عليه ... صحائف لم يخف فيها الرقيبا
أنا العبد المسيئ عصيت سرًا ... فمالي الآن لا أبدي النحيبا
أنا العبد المفرط ضاع عمري ... فلم أرع الشبيبة والمشيبا
أنا العبد الغريق بلج بحر ... أصيح لربما ألقى مجيبا
أنا العبد السقيم من الخطايا ... وقد أقبلت ألتمس الطبيبا
أنا العبد المخلف عن أناس ... حووا من كل معروف نصيبا
أنا العبد الفقير مددت كفي ... إليكم فادفعوا عني الخطوبا
أنا الغدار كم عاهدت عهدًا ... وكنت على الوفاء به كذوبا
أنا المقطوع فارحمني وصلني ... ويسِّر منك لي فرجًا قريبًا
أنا المضطر أرجو منك عفوًا ... ومن يرجو رضاك فلن يخيبا

فيا أسفا على عمر تقضى ... ولم أكسب به إلا الذنوبا
وأحذر أن يعاجلني ممات ... يحير هول مصرعه اللبيبا
ويا حزناه من حشري ونشري ... بيوم يجعل الوالدان شيبا
تفطرت السماء به ومارت ... وأصبحت الجبال به كثيبا
إذا ما قمت حيرانًا ظميئًا ... حسير الطرف عريانًا سليبا
ويا خجلاه من قبح اكتسابي ... إذا ما أبدت الصحف العيوبا
وذلة موقف وحساب عدل ... أكون به على نفسي حسيبا
ويا حذراه من نار تلظى ... إذا زفرت وأقلقت القلوب
تكاد إذا بدت تنشق غيظًا ... على من كان ظلامًا مريبًا
فيا من مدَّ في كسب الخطايا ... خطاه أما آن الآوان لأن تتوبا

أي أخي، أنقذ نفسك اليوم بالتوبة قبل أن تعظم منك الحسرات، ويتمزق قلبك بالندم في العرصات، من سعادتك أن تسعى في فكاك رقبتك، من توفيق الله لك أن يأخذ بناصيتك إلى توبة نصوح، من حب الله لك أن يتوب عليك وأن يقبل منك التوبة، فهيا إلى ربك تب إليه، تضرع بين يديه، تذلل لربك وألح عليه في طلب التوبة ولا تبرح حتى تبلغ مرادك، وتقر عينك بتوبة الله عليك، واعلم بأن ربك تواب رحيم رؤوف كريم لا يرد أبدًا من تاب إليه ودعاه «ففروا إلى الله».

❁ ❁ ❁